شوقى ضيف الإنسان والعالم

د. محمد حسن عبد العزيز

وكيل كلية دار العلوم

للدراسات العليا والبحوث

صلتى بالأستاذ الدكتور شوقى ضيف قديمة، فقد تتلمذت على كتبه فى أول عهدى بالدراسة الجامعية بدار العلوم، وكنت شديد الإعجاب ببحوثه الرصينة فى تاريخ الأدب العربى، ومنهجه المحكم، وبمعرفته الواسعة، وبلغته الدقيقة الواضحة.

وقد كنت آمل آنذاك أن ألتقى به وأستمع إليه ما دامت قد فاتتنى فرصة الدرس عليه. وقد تحقق هذا الأمل حين عينت خبيراً بلجنة الأصول بمجمع اللغة العربية منذ خمسة عشر عاما وعن كثب رأيت شوقى ضيف الإنسان والعالم.

شوقى ضيف الإنسان:

هو الخلق الرفيع فى أبهى صوره يزينه صوت هادئ كأنه الهمس، وابتسامة راضية مرضية كابتسامة الوليد، وراء هذا الصوت وتلك الابتسامة نفس أبية معتزة – ولا تعجب – فى تواضع وعفاف.

وإذا ما دار النقاش وجدت منه المعرفة الواسعة العميقة فيما يعرضه أو يسأل عنه، ويدعم تلك المعرفة بالأدلة القوية والرؤية الموضوعية، أما ذاكرته – حفظه الله – فحدث عنها ولا حرج ولتطمئن بالاً إذا سألت فسوف تجد عنده الجواب الحاضر الموثوق به.

وكان باللجنة عضو حاد المزاج يتحين الفرص للسخرية من النحو العربى (الذى كانت اللجنة مشغولة بتيسيره آنذاك)، وكان يتهم النحو بالعجمة لأنه من صنع سيبويه الفارسى، ولا يجد حرجا فى أن يصيب أعضاء اللجنة بشىء من حدته، فما كاد يزيد شوقى ضيف عن النظر إليه، ولست بمستطيع أن أحدثكم عن تلك النظرة وكيف كانت، ولكنى أحدثكم عن أثرها الساحر، فنظرة ونظرة وإذا الرجل الذى يتحاشاه الناس يتحفظ شيئا فشيئا ثم يسكت إلى أن توفاه الله.

وهكذا كان شوقى ضيف فى لجان المجمع صاحب الخلق اللين والعبارة القاصدة، لا يَغْضب ولا يُغضِب، وأذكر هنا درسا تعلمته:

يوما كتب عنى صحافى كلمة أساء فيها فهم كلام ورد فى رسالتى للماجستير عن لغة الصحافة المعاصرة، فاستشرت أستاذى فى رد أعددته على ما كتب، وبصوته الخفيض وابتسامته الحنون قال: يا محمد هذه معركة يفتعلها هؤلاء فلا تشغل بالك بها، لقد كتب عنى كثيرون وقالوا مادحين أو قادحين، فما زدت عن شكر المادحين والسكوت عن القادحين ومضيت فى طريقى الذى رسمته... إن كثيراً من الكتاب والعلماء شغلوا بما يقال فيهم وضيعوا فى ذلك أعمارا فلم يستفيدوا ولم يفيدوا.

بهذا الأسلوب صنع شوقى ضيف هذا البناء العلمى الشامخ.

ودرس آخر كان شوقى أمين أنشط أعضاء لجنة الأصول وأعرفهم بمسائلها وبمظانها، وكان يمد اللجنة بالموضوعات ويدعمها بالمذكرات بل بالقرارات، وكان شوقى ضيف يعجب بنشاطه الوافر وبنظراته اللغوية النافذة، ولكن كان يقول له علمك يا أستاذ شوقى فى صدرك وفى أضابير المجمع، وكان ينصحه بأن يجمع ما يقوله وما كتبه فى اللغة الأدب، وما أكثره، فى كتاب أو كتب، ولكنه – بكل أسف – لم ينتصح ورحل عنا شوقى أمين وفى صدره من تاريخ مصر وأدبها ولغتها ما يملأ مجلدات، أما علمه المكتوب – على جدته وتنوعه – فما يعرفه إلا القليلون.

ودرس آخر وما أكثر الدروس المستفادة من النفوس الكريمة:

من خلقه الكريم أنه قد يكون له رأى فى مسألة مما كنت أعرضه على لجنة الأصول فلا يكلمنى فيه علناً بل يحدثنى فى الهاتف، ويسألنى فى تلك المسألة وفيما أبديته فيها وكأنه يستفهم، ولكنه فى الحقيقة كان يهدى إلىَّ ما يعرفه فأنتبه إلى الفائدة التى ساقها هذا المساق الجميل الراقى.

جملة القول فى هذا الإنسان المثل أنه شجرة ثابتة الجذور وافرة الفروع ظلها وارف وجناها حلو نافع.

* * *

شوقى ضيف العالم :

ومفتاح شخصيته الكتابة، فقد ولد كاتبا ومضى به العمر لا يعرف غير الكتابة، ومن ثم لا تعجب حين تعرف من سيرته أنه وهو صبى لم ينشغل بما ينشغل به أقرانه من لعب أو لهو، بل شغل بتأليف كتاب عن النحو لخص فيه قواعده التى اسظهرها من شرح الآجرومية.

وقد بارك الله سبحانه وتعالى فى وقته فوضع ما يقرب من خمسين كتابا بين تأليف وتحقيق.

وقد استوفى تلامذته وزملاؤه بعض جوانب هذه الشخصية العلمية فى كتاب (شوقى ضيف سيرة وتحية)، ومن فضول القول والجراءة فيه أن أتحدث عن تلك الجوانب، ولهذا سوف أكتفى بكلمة عن شوقى ضيف العالم المعجمى.

* * *

شوقى ضيف المجمعى :

منذ انتخب شوقى ضيف عضوا بالمجمع سنة ١٩٧٦ وهو يشارك مشاركة فعالة فى كل أعمال المجمع، لا يخلو مؤتمر من مؤتمراته من بحث له، ولا عدد من أعداد مجلته من مقال. وتركز نشاطه فى لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ولجنة الأدب ومن بحوثه التى ألقاها فى مؤتمر المجمع :

– الفصحى المعاصرة.

– العروبة فى شعر أبى تمام.

– البلاغة عند ابن رشد.

– لغة المسرح بين العامية والفصحى.

– ملاحظات على قياسية الغالب من جموع التكسير.

– الشعر الحر بين التراث الشعرى والحداثة.

ولعلكم ترون المدى الواسع لاهتماماته ناهيك عن معرفته الواسعة بموضوعه ومنهجيته المحكمة فى علاجه وهذا أمر نكتفى فيه بالإشارة.

ومن اهتمامه بقضية المصطلح العلمى وتعريب العلوم والذى يتمثل فى مشاركته الفعالة فى اللجان العلمية، فإن قضية تيسير النحو وتنمية الفصحى المعاصرة بالألفاظ والأساليب قد أخذت بمجامع نفسه.

تيسير النحو:

قدم شوقى ضيف فى العام التالى لانتخابه عضواً بالمجمع ١٩٧٧ مشروعا متكاملا لتيسير النحو للناشئة، وشغلت لجنة الأصول بهذا المشروع جملة وتفصيلا، وفى أثناء ذلك كان شوقى ضيف يعدل فى صورة المشروع وفى بعض جزئياته ويستكمل النظر فى الأسس التى قام عليها وتبلور هذا كله فى كتاب (تجديد النحو) الذى يعد تطبيقا للمشروع بعد تعديله واستكمال أسسه. والكتاب – بغض النظر عما قد يقال عن بعض مسائله أو تبويباته المخالفة لما هو مألوف فى كتب النحو المدرسية – يعد أول محاولة متكاملة لتيسير النحو فى العصر الحديث.

وسوف أكتفى بذكر الأسس التى قامت عليها تلك المحاولة:

١ – إعادة تنسيق أبواب النحو .

٢ – إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى.

٣ – الإعراب لصحة النطق.

٤ – وضع ضوابط وتعريفات دقيقة.

٥ – حذف زوائد كثيرة، وهى شروط معقدة وإعرابات مفترضة.

٦ – إضافات متنوعة ضرورية لصحة النطق وسلامة التصريف.

وليغفر لى أستاذى الجليل ظلمى لمحاولته بعرضها بهذا الإيجاز وسوف أبذل غاية الوسع فى رفع هذا الظلم ببحث مفصل عنها فى قادم الأيام.

وبكل أسف لم يكن أغلب نقاد المحاولة منصفين، فقد احتجوا فى رفضها بمسائل فردية وتعليلات منطقية لا يعسر أمثال لها فى الاعتراض على التقسيمات المألوفة فى كتب النحو المدرسى. وقد غاب أيضا عن بعض نقدته أن مشروع التيسير متوجه إلى النحو للناشئة لا إلى طلاب الجامعات أو الباحثين، وأنه لا يتعرض بالتغيير لأصل من أصول اللغة أو حكم من أحكامها المقررة، وأن الغاية منه هى الغاية من كل نحو يدرس: صحة النطق وسلامة التعبير والفهم.

تنمية الفصحى المعاصرة:

الفصحى المعاصرة بمعجمها الواسع وبأساليبها المتنوعة وبقدرتها على الوفاء بمتطلبات العلوم والفنون نتاج متواصل دءوب لجيل رواد التحديث من المفكرين والعلماء والأدباء والصحافيين، والطهطاوى وجيله على مبارك ود. حسن الرشيدى ود. أحمد ندا والشيخ محمد عبده والبارودى.. ثم لطفى السيد وجيله شوقى ود. مشرفة ود. أحمد عيسى ود. محمد شرف ود. طه حسين والعقاد ونجيب محفوظ.. الخ.

بيد أن بعض اللغويين المتشددين لم يرضه تطور الفصحى فى ألفاظها وأساليبها فأسرعوا يخطئون ويمنعون.. وجعلوا أمرها عسرا بعد يسر وضيقا بعد سعة، ولم يكونوا فى كثير من الأحوال مدركين لوظيفة اللغة فى المجتمعات الحديثة بل لم يكونوا على علم واسع بمصادرها القديمة.

وقد انبرى المجمع لهذه القضية منذ أول عهده وقرر الأخذ بالقياس فى اللغة، وقبول السماع من المحدثين، وتكملة فروع مادة لغوية لم تذكر بقيتها، ودراسة الألفاظ والأساليب المحدثة وإقرار ما تمس إليه الحاجة منها.. الخ.

ومن هذه المبادئ انطلقت بحوث شوقى ضيف فى لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ، وهذه عناوين بعض بحوثه فى لجنة الأصول:

- النسب إلى المثنى فى المصطلحات العلمية.
- حذف تاء التأنيث فى المؤنث المجازى المصغر.
- تسكين أواخر الأعلام فى الدارج.
- صيغة فعلة وفعلة.
- رد المحذوف من فاء الثلاثى ولامه فى النسب.
- صدارة أدوات الاستفهام.
- لزوم الفعل الثلاثى وتعديته.

وفى البحث الأخير دعا إلى إجازة تعدى الفعل اللازم بصيغته إلى مفعول به منصوب، وإلى إجازة تحول الفعل الثلاثى المتعدى بنفسه إلى متعد بحرف، وتحول الفعل الثلاثى المتعدى بحرف إلى متعد بنفسه كل ذلك إذا دعت إليه حاجة علمية أو بلاغية.

والبحث مدعوم بالشواهد الغزيرة من أفصح الكلام من القرآن والحديث والشعر جاهلية وأموية وعباسية بالإضافة إلى ما ذكره أئمة النحو واللغة، وهكذا كانت دائما بحوثه.

وهذه عناوين بعض بحوثه فى لجنة الألفاظ والأساليب:

– هذا المنزل آيل للسقوط، وفلان آيب من سفره.

– صدفة ومصادفة.

– جمد وتجميد.

– بهت باهت.

– عشوائى عشوائية.

– شغوف.

– توفى ومتوفى.

– حبذا لو رضيت.

– صارحه الرأى..

– أفعال مبينة للمجهول والمعلوم بدلالة واحدة.

وفى البحث الأخير صحح ما شاع في كتب بعض النحاة واللغويين من اقتصار هذه الأفعال على البناء للمجهول، معتمدا على ما ورد فى معجمات اللغة من بنائها للمعلوم بالمعنى نفسه.

وفى كل بحث من هذه البحوث تظهر معرفة شوقى ضيف الواسعة بلغة العرب فى مختلف عصورها، وبالنحو العربى وبأحكامه وضوابطه وأسراره التى غابت عن هؤلاء المتشددين المضيقين، وتتبدى نظرته النافذة إلى الفصحى التى وسعت كتاب الله وعلوم اليونان والفرس والتى واكبت النهضة العربية الحديثة فى علوم العصر وفنونه ومظاهر حضارته.

وفى نهاية كلمتى أقول إن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف نموذج فريد لخلق رفيع عز أن يوجد فى هذه الأيام، مد الله فى عمره ونفع به، فهو وأشباهه أمل يعطى للحياة معنى، ولكل طالب قدوة ومثلا.